

وليم الصوري مؤرخا لمملكة بيت المقدس الصليبية (1130م _1185م 525هـ _ 580هـ) رؤية جديدة

سلمى مندور
(كلية الاداب – جامعة الاسكندرية)
salmaalaaeldin15@gmail.com

Abstract:

The East has not produced a single Latin historian who has been able to provide us with facts supported by precise details since the cessation of Foucher de Chartres's book (1127 AD) and its publication in 1184 AD, except for William of Tyre, who was considered an eyewitness to the events he recorded.

William provided us with information about the issue of the succession to the throne of the Crusader Kingdom of Jerusalem, the conflicts that took place over that throne, and the occasional resort to political marriages to ensure the presence of an heir to the throne. Therefore, this research aims to shed light on the life journey of the historian William of Tyre and to clarify the factors that shaped his personality and the events he recorded. The research also addresses aspects of life in the Kingdom of Jerusalem in particular, and the Crusader states in the East, and their relationship with the surrounding powers.

Keywords: Crusades, Baldwin IV, Jerusalem, Amalric, William of Tyre.

الملخص

لم يقدم الشرق مؤرخاً لاتينياً واحداً استطاع إمدادنا بالحقائق المدعمة بالتفاصيل الدقيقة منذ توقف كتاب فوشيه دو شارتر Foucher de Chartres سنة 1127م سوى المؤرخ وليم الصوري (William OF Tyre) والذي اعتبر شاهد عيان على الأحداث التي دونها. قد أمدنا وليم الصوري بمعلومات عن مسألة وراثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، والصراعات التي دارت حول ذلك العرش، واللجوء أحياناً إلى المصاهرات السياسية لضمان وجود وريث للعرش، وعليه فإن البحث يهدف إلى تسليط الضوء على رحلة حياة المؤرخ وليم الصوري، وتوضيح العوامل التي أدت لتشكيل شخصيته، وما دونه من وقائع، ويتطرق البحث إلى تناول ملامح الحياة في مملكة بيت المقدس خاصة، والإمارات الصليبية في الشرق، وعلاقتهم بالقوى المحيطة بهم.

الكلمات المفتاحية: الصليبية _ بلدوين الرابع _ بيت المقدس _ عموري _ وليم الصوري.

مقدمة

وليم الصوري يعتبر واحداً من أهم مؤرخي الشرق اللاتيني، و بنهاية تاريخه تنتهي الكتابة اللاتينية الشاملة، لم يكن وليم حريصاً على ذكر أصله؛ حيث تم معرفة القليل عن حياته المبكرة، لكنه وضع لنا بشكل غير مباشر افتراضات لخطوط سيرها بناءً على ما دونه من إشارات مختلفة، عن تفاصيل المواقع التي أوردها بالإضافة لنوع اهتماماته و ميوله في كتاباته.

والمؤكد أنه قضى سنوات طويلة من حياته في الازدياد من العلم الكنسي، والدنيوي وقد ساعده في ذلك معرفته الشديدة بلغات وثقافة الشعوب التي أوردها في كتاباته و اطلاعه على الوثائق من الجانبين الصليبي والإسلامي، و باعتباره شاهد عيان بمشاركته في السفارات والاجتماعات الهامة وجهوده الذاتية والروايات الشفهية، صداقته و تقدير الملك عموري الأول ملك بيت المقدس دفعه إلى تشجيعه على هذا التدوين ليكون سجلاً منظماً لتاريخه.

دون كل ما عاصره من جميع الجوانب الحياتية، وكان على الحياد حيث عارض أحياناً الملوك وأكبر النبلاء في البلاط الملكي.

و ننتقل إلى تفاصيل دقيقة عن الملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس القاصر باعتباره معلماً ومربياً له، ورحلته مع مرضه المفاجئ وانقسام البلاط الملكي إلى أحزاب؛ تجمع كل حزب منهم مصالح شخصية ويفرقهم خلافات شخصية، والتي أدت أحياناً إلى الصراع بين الإمارات الصليبية نفسها، وبالتالي حدوث حروب أهلية والتي امتدت لفترات طويلة، ومحاولات بلدوين المتعددة على مدار فترة حكمه بكسر قيد المرض والوقوف بجانب قواته بقلب ملك حقيقي، ومسايعه للحفاظ على أمن مملكته و استقرار شئونها بالبحث عن واصل يمثل له جسداً حراً، يستطيع الحراك وعقلاً يتصف بالحكمة وورثاً يضمن له استمرار الحكم من أسرته، و خوفه الدائم من انقسام المملكة أو ضياعها على يد الفرسان الصليبيين من أمراء الممالك، وهذا ما سوف تؤكد الوقائع التي عاشتها مملكة بيت المقدس سواء في لحظات الهزيمة أو الفرار أو في عزه عن الوفاء باتفاقيات الهدنة بين الطرفين الإسلامي و الصليبي و تأثير ذلك سلباً على أوضاع المملكة؛ حيث جاءت الضربة القاضية للصليبيين في حطين؛ وذلك لضعفهم و قلة مقدرتهم العسكرية والذين كانوا قد حذر منهم وليم وإن لم يشهدوا، فقد شهد عليها وسجلها المؤرخون ممن خلفوه.

بالإضافة لرصد اندماج الممالك والإمارات برباط الزواج السياسي القائم على التحالفات ضد العداوات المشتركة، وكان ملوك بيت المقدس حريصين على ربط أنفسهم بالقوى المسيحية ، بالإضافة لزيجات غير اعتيادية لعياب وريث العرش ونقل التاج إلى أبناء الأسرة الحاكمة من الإناث، و لم تكن هذه المرة الأولى في تاريخ مملكة بيت المقدس أو الإمارات الصليبية في الشرق عامة ، لكنها تعد فصلاً جديداً من السياسة الصليبية لما أصاب الممالك من أثر سلبي في هذه المرحلة منها.

أهمية البحث

إبراز أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية، وعلاقاتها بالقوى المجاورة من خلال سجلات وليم الصوري.

أهداف البحث

تناول الجوانب الحياتية للمؤرخ وليم الصوري، والعوامل التي أدت إلى تشكيل شخصيته والتي تجلت من خلال كتاباته، بالإضافة إلى تتبع الظروف التي دفعت وليم ليتم اعتباره أحد أهم المصادر المعاصرة لتدوينه حقائق دقيقة عن أحداث تلك الفترة.

منهج البحث: اتبعت الباحثة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، حيث تم وصف الأحداث، و تحليلها اعتماداً على المصادر والمراجع التاريخية المتاحة بغرض الوصول إلى الحقيقة التاريخية النسبية، وتدوين النتائج التي أسفرت عنها.

تقسيمات البحث: مقدمة، و سبعة مباحث، و خاتمة.

المقدمة: ذكرت فيها أهمية البحث، وأهدافه، و منهجه، و تقسيماته .
 المبحث الأول: لمحة عامة عن حياة وليم الصوري.
 المبحث الثاني: صداقته مع الملك عموري الأول ومناقشات أسفرت عن بدء التدوين لوليم.
 المبحث الثالث: بلدوين الرابع تلميذ وليم الملكي و توليته العرش.
 المبحث الرابع: الصراعات على وصاية العرش و الزيجات السياسية.
 المبحث الخامس: السياسة الخارجية مع القوى المسيحية والإسلامية.
 المبحث السادس: اختيار الأجدد بالوصاية على عرش مملكة بيت المقدس.
 المبحث السابع: الخطة التي وضعها وليم لمدونه.
 الخاتمة: اشتملت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وتلاها قائمة بالمصادر و المراجع.

المبحث الأول: لمحة عامة عن حياة وليم الصوري

وليم الصوري (Wiliam Of Tyre) كان من سكان بيت المقدس (Jerusalem) حيث ولد حوالي سنة 1130 م و من الراجح ان أبويه نزحوا من الغرب، واختلفت الروايات في ذلك؛ فأشارت معظمها إلى ان أسرة وليم قدمت من إنجلترا (England) أو ألمانيا (Germany) أو إيطاليا (Italy) أو فرنسا (France) لكن ميله لا يدل على أنه إنجليزي ، أما الآراء بأن أسرته جاءت من ألمانيا؛ فلا يزال يفتقر لدليل و أما ما سجله عن فرنسا و أقاليمها امتازت بوفرتها و هذا السبب ان كثيرًا من المؤرخين يجعلون وليم ينتمي إلى أصل فرنسي، و قد اشتهر وليم أيضًا بمعرفته التامة بإيطاليا، ويوجد إشارات لا نتوقعها من رجل فرنسي يجعلنا نميل إلي انه من أصل إيطالي؛ فأبوه لم يكن من طبقة الأشراف أو الفرسان، ويرجح ان يكون من التجار و المعروف ان أرباب هذه الحرفة ينتمون إلى أصل إيطالي و يؤيد هذا الرأي اهتمامه بنشاط التجار (العريني، 1962م، ص 101_103).

من المحتمل ان يكون أحد أجداده قد شارك في الحملة الأولى، و لم يحرص على ذكر أصله في مؤلفه ، هو الابن الأكبر لأسرة تعيش في رفاهية كل ما نعرفه عن أسرته أن أمه ماتت في عام 1181م، وأن أخاه رالف (Ralph) مات في إحدى المعارك ضد المسلمين، ويمكن معرفة القليل عن حياته المبكرة من خلال ما سجله بنفسه في كتابه الفصل 19 الفقرة 12، قضي وليم عشرين عامًا من حياته (1145م _ 1165م) مسافرًا في فرنسا وإيطاليا طلبًا للعلم؛ فدرس علم اللاهوت والفلسفة و الرياضيات في باريس (Paris) و شارتر (Chartres)، كما درس الكلاسيكيات في أورليانز (Orleans) و القانون في بولونيا (Bologna) و في عام 1165م عاد إلى الشرق حيث تقلد عدة مناصب هامة (عطية، 1989م، ص 34_35).
 ليس معروفًا ما إذا كان تم ترسيمه قسًا على يد البطريرك فولشر أو على يد البطريرك بطرس البرشلوني (Patriarch Peter of Barcelona) و لكن من المؤكد إنه كان من أعضاء الكاتدرائية المسؤولين في صور (Tyre) و توجد وثيقة ترجع إلى سنة 1161م تتعلق بتريسيه حررها بطرس رئيس اساقفة صور في سنة 1163م ، قبل سنة 1163م سافر وليم لمواصلة دراسته ، وحرص وليم ان يصف الرحلة ، إلا انه لم يتبق منه إلا عنوان الفصل والإشارة الوحيدة لتعليمه وردت في عبارة عن انفصال عموري (Amaury I) عن زوجته اجنيس (Agnes Of Courtenay) و ذلك سنة 1163م قبل تنويجه لأنه لم يكن قد عاد من رحلته (العريني، 1962م، ص 105).

المبحث الثاني: صداقته مع الملك عموري الأول ومناقشات أسفرت عن بدء التدوين لوليم
 تعتبر سنة 1176 م مهمة في حياة وليم الصوري؛ حيث آمال مملكة بيت المقدس بدأت تتحقق عندما استولى الصليبيون على عسقلان (Ashkelon) سنة 1153م واهتموا بتحسينها (العريني، 1962م، ص 106).

فكر عموري في غزو مصر (Egypt) فاتجه إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ للزواج من أحد الأميرات و بدأ في تنفيذ فكرته عام 1165م أي بعد عام من معركة حارم أعد سفارة للتوجه إلى القسطنطينية و قد ظلت السفارة في العاصمة البيزنطية لمدة عامين ثم عادت ومعها ماريّا (Maria) ابنة يوحنا (John) ابن عم الإمبراطور مانويل (Manuel I Komnenos) ورسا الجميع في ميناء صور حيث جاء عموري لاستقبالها مع حاشيتها، تم الاحتفال بالزواج في كنيسة صور في التاسع والعشرين من أغسطس عام 1167م، أهم ما ترتب على ذلك تعاون البيزنطيين والصليبيين لغزو مصر، من المحتمل أن يكون عموري هو الذي اقترح على الإمبراطور بفكرة غزو مصر، وأنه طلب من مانويل مساعدته بالقوات والأموال مقابل اقتسام مصر بينهم ، كلف عموري وليم الصوري بالذهاب مع السفارة للقسطنطينية لعرض رأي الملك لبيزنطة حول فكرة غزو مصر (عمران، 1985م، ص 294_298).

ناقش وليم الملك وقادته حول الحملة وازداد تقدير الملك لمؤرخه وليم، هيأت له هذه السفارة أول لقاء مع الإمبراطور مانويل الذي اجتمع به في معسكر البلقان، ثم عاد وليم بعد شهور إلى بيت المقدس معه معاهدة بعد توقيع الإمبراطور البيزنطي عليها، وكان من حسن حظه انه لم ير الملك لمدة تزيد عن عام لان رأيه في الحملة لن يرضى، ولم ير الملك عموري بعد عيد الميلاد 1169م ولما التقى بالملك وضح له في لباقة رأيه في الحملتين الأخيرتين (العريني، 1962م، ص 109).

صار الملك عموري يتردد كثيراً على صور و كان يلتقي بوليم، ثم اقترح عليه بدء كتابة مؤلفاته و تناقش حول المصادر التي سوف يبني عليها كتاباته وهو المعروف أعمال امليك (Gesta Amalrici) و الواقع أنه لم يكن هناك تاريخ منظم منذ أن وقف فولشر شارتر بكتابه عند سنة 1127م (العريني، 1962م، ص 111).

و يعتبر من أكثر المصادر اللاتينية دقة؛ ليكون سجلاً لأعمال الملك الصليبي 18 و يبدأ الكتاب بالفتح الاسلامي لسوريا (Syria) ، ثم غطى الحملة الصليبية الأولى حتى عهد بلدوين الثاني (Baldwin II Of Jerusalem) معتمداً على المؤرخين اللاتين السابقين بالإضافة إلى ما أمده به الملك عموري من كتب المؤرخين المسلمين من المحتمل أن يكون الفرنج أخذوها من أمتعة أسامة بن منقذ التي كانت في السفينة الغارقة بالقرب من عكا (Acre) و التي وضع بلدوين الثالث (Baldwin III Of Jerusalem) يده عليها في عام 1154م (عطية: 1989م، ص 35_36).

كان يجب على وليم أن يبدأ بكتابة التاريخ من مجمع كليرمونت 1095 (Claremont) م أو 1904م و هو التاريخ الذي قيل فيه أن بطرس الناسك (peter The Hermit) أدى فيه الحج في بيت المقدس (العريني، 1962م، ص 112).

المبحث الثالث: بلدوين الرابع تلميذ وليم الملكي و توليته العرش

قد كان الملك عموري حريصاً على تعليم ولد بلدوين (Baldwin IV Of Jerusalem) وقد عهد إليه بتعليمه وتربيته عندما كان وليم رئيساً لشمامسة صور، وكان بلدوين يقارب التاسعة من عمره، فاستجاب لإلحاح عموري و قبل المهمة وقام بتكريس جهده من أجله، حدث في ذات يوم من الأيام و هو يلهو مع أقربائه، وكان كل واحد منهم يقرص الآخر و يخدشه بأظافره وكانوا يصيحون من الألم إلا هو، وأخبره أحد رفاقه أن هذا تكرر حدوثه من قبل فأرجح ان هذا من قدرته على قوة التحمل، لكن اكتشف أن هذا يرجع لفقده الإحساس بذراعه الأيمن و يده فلا يشعر بهما، وعلم عموري بحالته واستشار الأطباء ولكن الأدوية لم تجد نفعاً، وعرفوا بمرور الوقت أن هذا بداية أعراض مرض الجذام وانه لا يمكن الشفاء منه و حالته كانت تزداد سوءاً (الصوري، 1995م، ج2، ص 174_175).

بمرور الزمن بدأت اطرافه ووجهه بشكل خاص يتعرضان للتضرر، لكن رغم ذلك كان فارساً ممتازاً يجيد التعامل مع الخيول، بالإضافة إلى أنه كان يتمتع بذاكرة قوية شغوف بالتاريخ، وكان يحب الحديث مقتصداً

رغم ان حديثه متلعثمًا بعض الشيء، دومًا ما كان يذكر في حديثه كلاً من مساوئ و محاسن الأشياء. شابه بلدوين والده عموري في صفاته و هيئته بأكملها (Babcock & Krey, 1943, P.398)). مضت أربع سنوات قبل أن ينتهي وليم من تأليف الكتابين؛ إذ إنه أنجز ما لا يقل عن نصف كتاب تاريخ المملكة، ويرجح انه انتهى أيضاً من نصف الكتاب الآخر، وتأثر بعد ذلك نشاط وليم عندما اشتد المرض بالملك عموري ثم وفاته، و هو لم يتجاوز الثامنة و الثلاثين من عمره، فحزن عليه وليم وعبر عنه بأنه حمل الأطباء المسؤولية عن وفاة الملك نظراً لجهلهم و عدم كفاءتهم (العريني، 1962م، ص 113). جاءت وفاة عموري الأول في يوليو 1174م ضربة شديدة للصليبيين في بلاد الشام؛ لافتقادهم خبرته الطويلة في محاربة المسلمين وأيضاً لأهمية تأثير وجوده على الإمارات الأخرى في بلاد الشام و لحاجة الصليبيين إلى جهوده في تلك الفترة الصعبة، خاصة بعد وفاة نور الدين محمود أيضاً (الشيخ، 2004م، ص 334). وفاة نور الدين ثم وفاة عموري غيرت مجري الأحداث، ومهدت الطريق لصلاح الدين، لما توفي نور الدين تولى بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل وكان عمره إحدى عشرة سنة وقد حلف له الأمراء في دمشق القسم بالطاعة، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بن المقدم، لم يمض وقت طويل حتى أرسل صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل يعزيه في والده ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه (عمران، 2011م، ص 102_103). أثناء تنازع أمراء نور الدين؛ أرسل صلاح الدين رسله إلى دمشق طالباً حقه في الوصاية على الصالح إسماعيل وأملاك نور الدين، وانتقل الصالح إسماعيل إلى حلب (Aleppo) حيث كانت مقر الحكم النورية في صيف 1774م، واستبد بأمره بن كمشتكين بعد أن اعتقل ابن الداية و انفرد بالوصاية على الملك الصغير، الواقع أنه لم يكن صلاح الدين في حاجة إلى دعوة للذهاب إلى دمشق (Damascus)، إلا أنه ادرك ضعف أمراء الشام وعجزهم عن الجهاد ضد الصليبيين، وأدرك أحقيته في الوصاية على الدولة النورية قبل أن يهزمها الصليبيون؛ ولهذا خرج إلى الشام في أواخر نوفمبر سنة 1174م بعد ان استخلف على مصر أخاه العادل، وفي نيته الحفاظ على الوحدة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، وأحس بذلك وليم الصوري الذي أشار إلى أنه (كلما ازدادت قوة صلاح الدين اشتدت عداوته و خصومته لنا فآثار ذلك الخوف والرعب فينا، لان أي زيادة في قوته و سلطته تحمل الخطر الكبير على المملكة (الشيخ، 2004م، ص 335_336)).

المبحث الرابع: الصراعات على وصاية العرش و الزيجات السياسية

كان بلدوين قد قارب الثالثة عشر عاماً حين مات عموري وكانت له أخت تسمى سيبلا (Sibyilla)، (Queen of Jerusalem) نشأت تحت رعاية السيدة ايفيتا خالة أبيها والتي كانت رئيسة راهبات دير سانت لازار (Saint Lazare)، عندما مات عموري اجتمع نبلاء المملكة من مدنيين و دينيين في مجلس اتفقوا فيه على تتويج بلدوين حسب العادات المتبعة في كنيسة القيامة في اليوم الخامس عشر من يوليو وكان على كرسي الكنيسة الرومانية المقدسة حينذاك اسكندر الثالث (Alexander III) كما كان ايمري بطرك انطاكية (Imre Patriarch Of Antioch)، و امالريك بطرك القدس (Patriarch Of Jerusalem) و فريديك رئيساً لأساقفة صور (Frederick, Archbishop of Tyre)، وعلى الإمبراطورية الرومانية فريديك (Frederick) و كان بالقسطنطينية الإمبراطور مانويل و على الفرنجة الملك لويس (Louis King)، أما عن إنجلترا فكان يحكمها هنري كونت انجو (Henry, Count of Anjou) (الصوري، 1995م، ج2/ص176).

قد بدأت الصفحة الأولى في التنافس بسبب الوصاية على الملك القاصر حتي استطاع ميلون دي بلانسي (Mlion de Plancy) الذي كان صديقاً لعموري ان يتولى شئون الحكم حيث كان وصياً على بلدوين الرابع عندما تولى ميلون شئون الحكم حرص على استئناف سياسة عموري الأول الداخلية والخارجية، ظهر معارض جديد لميلون و هو ريموند الثالث أمير طرابلس (Raymond III Count Of Tripoli) الذي

كان أسيرًا لدى نور الدين من سنة 1164م حتى سنة 1172م وقد نجحت المؤامرة التي دبرت ضد ميلون و التي انتهت بمقتله في أواخر سنة 1174م في شوارع عكا ، ثم أصبح ريموند الثالث وصيًا على مملكة بيت المقدس و ملكها الصغير ، ليصبح أقوى شخصية في بلاد الشام الصليبية لقرابته من ملك بيت المقدس ولنجاحه في ضم طبرية و إقليم الجليل (Galilee) إلى املاكه بعد زواجه من وريثته (عاشور، 2010م، ص 31_32). مهما يكن الأمر فان وليم الصوري التزم بالصمت و لم يمدنا بمعلومات تفيد بأنه تم القبض على القاتل و انه جرت محاكمته، و ما هي الدوافع التي أدت إلى ارتكاب الجريمة (علي، 1984م، ص 102).

اجنس ام الملك بلدوين الرابع قد سيطرت على حزب البلاط الملكي، أما عن فرسان الاستتارية والداوية فقد وقفوا على الحياد ولكن في النهاية وقفت هيئة فرسان الداوية مع الحزب المعارض لريموند الثالث وذلك لوجود خلافات شخصية بينهم (علي، 1984م، ص 109).

بههدف الحد من طموحات ريموند الثالث نحو العرش؛ سعت اجنس إلى إطلاق سراح أخيها جوسلين الثالث (Joscelin III) من أسيرة الطويل في حلب و بإطلاق سراحه أصبح جوسلين يتقاسم النفوذ و حاكم الرها سابقًا و المكانة مع ريموند (رانسيما، 1994م، ج 2/ ص 465).

المبحث الخامس: السياسة الخارجية مع القوى المسيحية والإسلامية

كان على ريموند ان يتخذ موقفًا للحد من نمو قوة صلاح الدين التي تمهد إلى الاتحاد بين القاهرة (Cairo) و دمشق جاءت الفرصة للصليبيين عندما خرج صلاح الدين من دمشق باسم الصالح بن نور الدين قاصدًا حلب عبر حماة (Hama) التي دخلها و لكن قلعتها امتنعت عليه فترك بها بعض قواته لمنازلة القلعة ومضى إلى حلب (عمران، 2011م، ص 105).

قد بدأ صلاح الدين الاستيلاء على مدينة حمص في 10 سبتمبر 1174م من حكامها النوريين وفي آخر ديسمبر كان صلاح الدين قد وصل مشارف حلب نفسها وقد قاومت حلب، ورفضت الاستسلام لصلاح الدين وفي الوقت نفسه قرر كمشتكين الاستعانة بالباطنية و الصليبيين، وسريعًا أرسل سنان مقدم الإسماعيلية الباطنية إلى معسكر صلاح الدين من الفدائيين لقتله، وعندما اقتربوا من صلاح الدين وواشكوا على تنفيذ مؤامرتهم انكشف امرهم، عندها أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة، وكان ريموند الثالث أمير طرابلس والوصي أيضًا على عرش مملكة بيت المقدس يدرك أهمية تحالف الصليبيين مع حلب؛ فأسرع إلى نجدة حلب كما يقول المؤرخ وليم الصوري (و إنما ليس الطريق في وجه صلاح الدين) ، لم يجد ريموند وسيلة لإبعاد صلاح الدين عن حلب إلا مهاجمة حمص التي كان استولى عليها صلاح الدين ، وفعلاً نجحت الخطة فاضطر صلاح الدين اوائل فبراير سنة 1175م الي ترك حلب والذهاب لنجدة حمص (hummus) فانصرف ريموند إلى حصن الأكراد بعد أن حقق هدفه، اما كمشتكين عبر عن اعترافه بالجميل للصليبيين بإطلاق سراح من كان في قلعة حلب من أسرى الصليبيين وعلى رأسهم رينو دي شاتيون (Renaud de Chatillon) و جوسلين الثاني دي كورتناي (Joscelin II) (عاشور، 2010م، ص 36_38).

لم يتم التصديق علي تعيين وليم رئيسًا لأساقفة صور إلا في 6 يونيو سنة 1175م، وبذلك أصبح وليم في أقل من سنة يشغل مكانة كبيرة في أمور الدولة و الكنيسة و الراجح ان وليم ظل نحو سنة و نصف بعد ان تولى وظيفة المستشار يقضي معظم وقته في البلاط و استأنف بصفة غير رسمية رعاية الملك وفي اثناء هذه الفترة انه اطلع على تفاصيل سير الأمور بالمملكة لقربه من ريموند و سائر رجال البلاط والواقع انه احتاج وليم لهذه الفترة في سنة 1176م لأنه قد أصبح المستشار الأول للملك بلدوين الرابع بعد أن بلغ سن الرشد و بعد أن تخلى ريموند عن الوصاية (العريني، 1962م، ص 115).

عندما تدهورت صحة بلدوين الرابع فكر مع رجال بلاطه للبحث عن زوج لأخته سبيلًا و ذلك للاحتفاظ بالسلالة الملكية بدلًا من إعطاء الفرصة لريموند الثالث أمير طرابلس و قد أسفر هذا البحث عن وصول وليم

و كنيته (Long Sword) لونج ساورد بدعوة من الملك بلدوين، وهو الابن الأكبر لوليم ماركيز مونتفرات (William Marquis Of Montferrat) في أكتوبر 1176م (علي، 1984م، ص 115).
بعد أربعين يومًا من وصوله تم الزواج بين أخت الملك الكبرى و بين ولیم في حفل كان تم الاستعداد له من العام الماضي، و تسلم ولیم مع زوجته مدينتي يافا وعسقلان بكل ملحقاتهما، كان الماركيز ولیم شابًا وسيماً كان سريع الغضب مع شدة كرمه وصراحته، ولم يخف أي هدف يسعى إليه بل كان يعلنه صراحة، لم يكن مر علي زواجهما إلا ثلاثة أشهر حتي أصابه مرض عضال لازمه شهرين، وكان الملك أيضًا يعاني من مرضه في عسقلان، مات الماركيز ولیم في سنة 1177م تاركًا زوجته وهي حامل فنقلوا جثمانه إلى بيت المقدس و دفن في بهو كنيسة الفرسان الاسبتارية وقام ولیم السوري بأداء مراسم الجنازة (الصوري، 1995م، ج2/ ص 198).

في الشهر الثاني من السنة الرابعة من حكم الملك بلدوين الرابع، وفي أول أغسطس أرسى بميناء عكا فيليب كونت فلاندرز (Philippe, count of Flanders) على الرغم من أن الملك ازداد مرضه؛ إلا أنه أمر بأن يأتوا به من عسقلان إلى بيت المقدس و وكل إليه مسئولية إدارة أمور المملكة في السلم والحرب، بعد أن تشاور الكونت فيليب مع أتباعه، أجاب بأنه لم يأت إلى المملكة بقصد امتلاك السلطة، ولكنه جاء ليكرس نفسه لخدمة الرب، وليقوم الملك بتعيين أي شخص آخر يختاره الملك وما عليه إلا طاعة هذا الشخص مثل سيده ملك فرنسا، كان يصحب الكونت في حجه هذا رجل ثري هو المحامي بيتون (Betune) الذي كان اصطحب معه ولديه و قد ادعى أنه صاحب إقطاعات كثيرة، ووعد بالتخلي عنها للكونت لتكون ملكه إلى الأبد بحق الوراثة إذا استطاع أن يرتب زواج ولدي المحامي من بنات الملك عموري، وكانت إحداها هي أرملة ولیم و الأخرى التي كانت تعيش مع امها الملكة في نابلس (Nabulus)؛ فوافق الكونت على العرض و حاول إتمام هذا الزواج فكأن الرد على هذا القول أنه ما يجرح كرامة الملك يجرح كرامتنا نحن أيضًا؛ أن لا نقبل زواج أخته من نكرة عندنا نجهل كل شيء عنه حتي اسمه، فقرر كونت فلاندرز التراجع عن خطئه، وأظهر شدة غضبه حين اتضحت له نية الملك و نية جميع الكونتات (الصوري، 1995م، ج2/ ص 200_203).

و كان الوقت الذي وصل فيه فيليب وصلت سفارة بيزنطية مكونة من اندرونيكوسوس انجيليوس (Andronikos Angelos)، ويوحنا دوقاس (John Doukas) لتبلغ الملك بلدوين أن الوقت أصبح مناسبًا لتنفيذ المعاهدة التي عقدها الإمبراطور مانويل مع الملك عموري في عام 1171م و التي جدها الملك بالشروط نفسها بهدف غزو مصر، وعرض على فيليب كونت فلاندرز قيادة الحملة و لكن فيليب رفض هذا العرض، معللاً أنه قدم إلى الأراضي المقدسة لتزويج ابنتي عمه وأنه يود العودة إلى بلاده لتدبير أموره كان موقف فيليب صدمة للصليبيين، ولهذا عين وصيًا على مملكة بيت المقدس رينو دي شاتيون الذي أصبح أميرًا على حصن الكرك بعد إطلاق سراحه من الأسر، وعرض الأمر مرة أخرى على فيليب و لكن فيليب أخبره بأنه غريب على المنطقة ولا يعرف أرض مصر و الواقع أن فيليب كان على صواب لأن هذه الحملة كان محكومًا عليها بالفشل فأبلغوا السفارة بعدم استعدادهم في هذا الوقت و طلبوا من السفارة تأجيل الحملة إلى شهر أبريل من العام 1178م (عمران، 1985م، ص 158_161).

و كان صلاح الدين قد عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها، وإراحة العسكر ثم تأهب لغزو بلاد الصليبيين و يبدو أن عودته إلى البلاد المصرية كانت بسبب ما عرف عن إعداد حملة صليبية يتولى قيادتها كونت فلاندرز عام 1177م و لكن فشل المشروع تمامًا ولم يجازف الصليبيين بمحاولة غزو مصر (عمران، 2011م، ص 106).

لكن وافق على مهاجمة المسلمين في الشمال عند اطراف إمارة طرابلس و انطاكية (الشيخ، 2004م، ص 340).

رغم ذلك أراد الملك ان يتعاون مع فيليب، فأمدّه عند رحيله بمائة من فرسانه و في أكتوبر 1177م ذهب الكونت بقواته إلى طرابلس و برفقته رئيس فرسان الاسبتارية وعدد كبير من فرسان الداوية (الصوري، 1995م، ج2/ ص 211).

رغم أن وليم كان دوماً مؤرخاً جيداً، إلا أنه قد أخفى جانباً من المفاوضات معتمداً بين وليم و التاج، ويرجع ذلك إلى أسباب سياسية لأنه ما أشار إليه في مدونته يظهر أنه كان يعلم بأكثر مما سجله (Hamilton, 2005, p.7).

حظي بوهيمند الثالث أمير انطاكية (Bohemond III Of Antioch) بالنصيب الأكبر من اهتمام وليم الصوري، المعلومات التي سجلها أكدت على حدوث اتفاق بين كونت فلاندرز و ريموند كونت طرابلس و بوهيمند الثالث، دون الاشتراك في الحملة البيزنطية الصليبية التي يتم التفاوض عليها لغزو مصر و هذا أكد أن سلطة بيزنطة على إمارة انطاكية انتهت قبل موت مانويل بثلاثة سنوات (عطية، 1989م، ص 37). قد هجموا على مدينة حماة و لقيوا مقاومة من سيف الدين بن المشطوب قائد حاميتها، فتركها و ساروا نحو حارم و استمر الحصار لمدة أربعة أشهر دون نتيجة أيضاً حيث دفع أهل الحصن؛ لتسليمه إلى الملك الصالح إسماعيل، كان الحصن بيد كمشتكين فطلب منه تسليمه قبل أن يحاصره الفرنج فرفض فقتله الملك ، قام باستلامه، لما عرف صلاح الدين وهو في مصر بما حدث من الفرنجة ونقضهم للهدنة كان يجب أن يعود إلى الشام فجهز جيشه، و جرت موقعة بين تل الجسر و الصافية في 1177م (برجاوي ، 1984م، ص 363_364).

صلاح الدين استغل فرصة سير الجيش الصليبي لحصار حلب بشمال الشام و قام بغارة على مملكة بيت المقدس و كان وليم الصوري برفقة الملك عندما خرج لرد هجمات صلاح الدين و قد عهد الملك بلدوين إلى رينو دي شاتيون بقيادة ما تبقى من القوات في بيت المقدس (العريني، 1962م، ص 117). قد نجح صلاح الدين في محاصرة عسقلان ببعض قواته و اتجه ببعض قواته الأخرى إلى القدس و من عسقلان طلب بلدوين النجدة من قوات الداوية في غزة ثم خرج بلدوين و معه قواته بجانب الساحل ثم انصرفوا إلى الداخل أواخر أكتوبر 1177م و عندما كانت قوات صلاح الدين تجتاز منخفض الجزر انقض عليهم الصليبيون و لم يكن لهم حصن قريب يلجأوا إليه فذهبوا باتجاه مصر (عمران، 2011م، ص 106). على الرغم من أن صلاح الدين أوغل في غاراته حتى أسوار بيت المقدس لكنه تعرض للهزيمة، اعتبر وليم الصوري هذا النصر من المعجزات، كما اعتبر ما أصاب حملة فيليب على حارم من فشل عقاباً من الرب، وخشى وليم بعد عودته أن يثير روح التعصب ضد ملك بيت المقدس، فبادر بإرسال ما حدث إلى زعماء الغرب، ومن حسن الحظ أن قبلوا ما نقله لهم وليم عن هذه الأحداث وشعر وليم بالارتياح بعد الحملة التي قادها ضد صلاح الدين، وبعد رحيل فيليب تحسنت الأمور في السنة التالية فالملك بلدوين استرد عافيته و لم تتعرض مملكة بيت المقدس لهجوم جديد و تهيأت الفرصة لأن يحصن الملك الطرف الشرقي لمملكته، وصار في إمكان وليم أن يلتفت لأمر الكنيسة (العريني، 1962م، ص 117).

بعد ثلاثة أشهر عاد صلاح الدين إلى الشام ، بعدما ذهب، بدأ الصليبيون بإقامة حصن عند بيت يعقوب لكي يفصل بين المسلمين والصليبيين عن منطقة الجليل، وأكملوا بناءه 1178م و ملأوه بالخيرة (برجاوي، 1984م، ص 366).

حقق وليم الصوري ما كان يتمناه بأن يتولى بطريركية بيت المقدس، فقد قرر أن يتولى رئاسة الوفد الذي يمثل مملكة بيت المقدس لحضور مجمع اللاتيران في روما الذي دعا إليه البابا اسكندر الثالث (العريني، 1962م، ص 118).

كان في شهر أكتوبر من العام الخامس من حكم الملك بلدوين من سنة 1178م غادر عدد كبير استجابة للدعوة التي قد أعلن عنها العام الماضي في كافة أرجاء العالم اللاتيني (الصوري، 1995م، ج2/ ص 226).

شهدت الكنيسة في الخامس من مارس عقد مجمع ديني ضم ثلاثمائة أسقف، وكان هذا في السنة العشرين من بابوية اسكندر الثالث، و قد وصلت أخبار إلى الملك بأن المسلمين أرادوا الحصول على مرعى لماشيته فخرجوا بقطعانهم دون ان أخذ حذرهم في الغابة القريبة من بانياس و لم يكن معهم أحد لصد أي هجوم و حينها تسلل الصليبيون ليلاً ليفاجئوا المسلمين (الصوري، 1995م، ج2/ ص 229).

طلب صلاح من بلدوين هدم القلعة مقابل مائة ألف دينار فرفض و قام بحملة على دمشق(برجاوي ، 1984م، ص 366).

أرسل صلاح الدين ابن أخيه فروخشا الذي انقض على الجيش الصليبي فجأة (عمران، 1995م، ص 107). عندما عرف الكونستابل بما حدث و حاربهم لحماية الملك بلدوين الرابع ، و تعرض همفري (Humphrey) يقاتل لضربات قوية ولم يستطع رجالة ان ينفذوه إلا بصعوبة؛ فأخرجوه بعيداً على ظهر حصانه و قد قتل في هذه المعركة رجال بارزون.

أما حالة همفري فحملوه إلى الحصن الجديد وبقي هناك لما يقرب من عشرة أيام و دفن في قلعته (قلعة ترون) و تمت مراسم الدفن في كنيسة الأم المباركة والعذراء البتول، كان صلاح الدين قد انتهى من غاراته على إقليم صيدا حيث لم يجد من يتصدى له، والشهر التالي صمم على شن غارة نصب من أجلها معسكره بين بانياس ونهر دان.

لما جاءت الأخبار إلى الملك اسرع إلى مدينة طبرية بجميع القوات التي استطاع ان يجمعها و جاءت الأخبار بأن صلاح الدين لا يزال جيشه في نفس الموضع بعد ان ارسل فرسانه لتخريب حقول صيدا و ثم تحرك الصليبيون نحو بانياس (Baniyas) ، قطع صلاح الدين الطريق ، ثم جرت من الجانبين مناوشات أدت انتصار الصليبيين و لما علم صلاح الدين استعداد للذهاب لينفذهم فذهب إلى قواته فلما وصل شجعهم بكلامه إليهم و ردهم إلى كتائبهم ثم اغار على الصليبيين الذين كانوا يطاردون الهاربين (الصوري، 1995م، ج2/ ص 231_234).

اتجه صلاح الدين بعد انتصاره في مرج العيون إلى حصن، كان الداوية قد أجبروا بلدوين على بنائه قرب بانياس سنة 1178م الذي كان خطراً على المسلمين لأنه يتحكم في منابع الأردن (Jordan) وسهولة العليا (الشيخ، 2004م، ص 342).

أقام الصليبيون في العام التالي حصناً آخر على جبل هونين، وقام صلاح الدين بحصار مخاضة يعقوب، ولكن مناعتها الدفاعية جعلت صلاح الدين يتراجع إلى بانياس وعند مدخل وادي أنهار الأردن هاجم صلاح الدين بعض القوات الصليبية وأجبرها على الهرب ووقع البعض أسيراً أو قتيلاً، وكان ممن وقع في الأسر مقدم الداوية اودو اف سانت اماند (Odo of Saint-Amand) و بلدوين ايبيلين (Baldwin of Abilene) و هيو حاكم الجليل (Hugh, Count of Galilee) و قد افتدت كوننيسة طرابلس (Tripoli) والدة هيو ابنها بخمسة وخمسين ألف دينار ، و مقابل إطلاق سراح بلدوين طلب صلاح الدين فدية مائة وخمسين ألف دينار، ولكن تم إطلاق سراحه مقابل ألف أسير من المسلمين، أما اودو فمقابل أحد كبار الأسرى المسلمين، لكن اودو اعترض على ذلك لأنه لم يقبل أن يساويه بأحد فظل أسيراً حتي مات في العام التالي (عمران، 1995م، ص 107).

قام صلاح الدين بحصار الحصن الذي عهد به الملك إلى الداوية الذين كانوا استولوا عليه بسبب تنازل الملك لهم عنه، فلما عرف الملك جمع كل قوات المملكة كما استدعى كونت هنري دي تروي (Comte Henri De Troyes) وذهب إلى طبرية (Tiberias) لمساعدة المحاصرين، وإجبار العدو على فك الحصار، كان بلدوين واقفا ينتظر، وقد أجل الاستعدادات ليوم واحد جاءت الأخبار بأن العدو قد دخل الحصن و هدمه حتي سواه بالأرض، أما رجال الحامية الذين كانوا هناك فقد قتل بعضهم و البعض الآخر أخذوهم أسرى (الصوري، 1995م، ج2/ ص 237).

طلب بلدوين الرابع هدنة من صلاح الدين فعقدت الهدنة في مايو 1180م، وأتاحت هذه الهدنة فرصة لصلاح الدين لكي يضم حلب والموصل فقد شغلت حيزًا كبيرًا من تفكيره (الشيخ، 2004م، ص 342).

المبحث السادس: اختيار الأجدد بالوصاية علي عرش مملكة بيت المقدس

عاد وليم إلى صور سنة 1180م بعد غياب استمر سنتين، أحس وليم تغييرًا في بيت المقدس لم يشعر به عند مغادرته لها سنة 1178م، على الرغم من ذلك لم تتغير مشاعر بلدوين نحوه، إلا أن صحة الملك ازدادت سوءًا فقد اشتد المرض عليه و أثار ذلك مأساة الوصاية من جديد (العريني، 1962م، ص 119).
خاف بلدوين من وصول بوهيمند أمير انطاكية وريموند كونت طرابلس إلى المملكة حتي لا يؤدي قدومهما إلى إحداث ثورة لإبعاده عن العرش.

سببلا أخت الملك كانت تعتبر حلا لهذه المشكلة لكنها قررت ألا يتدخل أحد في أمر زواجها، وقد تعلق قلبها بمغامر وسيم صغير السن اسمه جاي دي لوزيجنان (Guy Of Lusignan) (و شجعها على ذلك ازدياد نفوذ أمها وشدة تأثيرها على الملك أثناء مرضه، إلا أن هذا الزواج قد عارضه النبلاء، لكن اجنس أقنعت الملك بأنهم يملكون نوايا سيئة ضد ملكه، ولن يمنعم إلا المبادرة بزواج سببلا من جاي لوزيجنان، وافق الملك و تمت مراسم زواج أخته سببلا على شاب و احتفل بهذا الزواج في أسبوع عيد الفصح 1180م فخرج الملك بهذا على العرف المتبع لكنه لأسباب خاصة؛ وهو مرضه و عدم وجود وريث له (الصوري، 1995م، ج2/ ص 254_255).

ساعت سيرة بوهيمند الثالث أمير انطاكية و اضطربت أحوال الإمارة، وفسدت أخلاقه حتي اصدر الأساقفة ضده قرارًا بالحرمان، وذلك لم يوقفه عن أفعاله بل زاد في عناده و نفي عدد كبير من النبلاء خارج المدينة، وحدثت حرب أهلية بانطاكية (Antioch) استمرت الأوضاع تزداد سوءًا حتي أصبح بوهيمند أسيرًا في يد الأرمن، و قد أضعف ما حدث الصليبيين في الشام خاصة عند وفاة حليفهم الإمبراطور مانويل 1180م، وبدأت بيزنطة في التغير في عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين الثاني (Alexius II Comnenus) (الشيخ، 2004م، ص 343).

مات البطريك امالريك و ايد الملك بلدوين و رجال الدين ترشيح وليم الصوري ليخلف البطريك وتم عرض أسماء كما كانت العادة و تقرر ترشح هرقل رئيس أساقفة قيسارية (Heraclius Of Caesarea) وكان يربطه باجنس صداقة، وحزب اجنس المسيطر على الحكم رفض ان يؤيد وليم بسبب علاقاته بالحزب المعارض لهم و تقرر انتخاب هرقل بطريك (Heraclius, Patriarch of Jerusalem) في 16 اكتوبر 1180م، اغلق في وجه وليم باب الارتقاء في السلك الكنسي، وما اكتسبه من خبرة في الأمور الدولية ضاع بلا فائدة، وعلي الرغم من ان وليم ما زال مستشار الملك فان لم تعد هناك حاجة اليه إلا في بعض المناسبات الرسمية و قد تفرغ وليم لتسجيل كتاباته لمدة سنتين و نصف و بالإضافة لقراءة ما سجله المؤلفون القدامى (العريني، 1962م، ص 220).

مات الملك الصالح إسماعيل وكان لا يزال صغيرًا، ولم يكن يملك إلا حلب وبعض القلاع و يقال انه أوصى بها و بكل ما يملك إلى قطب الدين مسعود حسب وصيته الأخيرة، أما صلاح الدين بعد أن وقع هدنة لمدة عامين عاد إلى مصر (الصوري، 1995م، ج2/ ص 269).

لم تحافظ مملكة بيت المقدس على الهدنة لأن رينو أوف شاتيون سيد اقطاع إقليم ما وراء الأردن لم يلتزم بها فقد كان من شروط الهدنة أن يكون للتجار المسلمين والصليبيين حرية الانتقال؛ فطمع رينو في قوافل التجارة و في صيف 1881م هاجم قافلة إسلامية قرب واحة تيماء واستولى على ما فيها وكان صلاح الدين بمصر، و لم ينجح في استعادة القافلة، فشكا لبلدوين الذي لم يستطع فعل شيء، ورفض رينو ان يعيد ما استولى عليه فأصبح الصدام العسكري بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس متوقعًا (عمران، 2011م، ص 108).

هبت رياح شديدة على سفينة الحجاج ألقت بها في دمياط (Damietta) في مصر فتحطمت على الساحل، فأخذوهم أسرى وأصبح كل ما كان معهم ملكاً له ثم بعث رسولاً لكنه لم يحصل على رد مقنع بشأن مطالبه وكان السبب الحقيقي له على هذا العمل هو رغبته في الانتقام من رينو بسبب نقضه للهدنة (الصوري، 1995م، ج2/ص 281_282).

محاولات لبث الشقاق بين اجزاء المملكة حيث قيل للملك ان ريموند سيأتي لإثارة الفتنة ضد حكمه، فأرسل الملك لريموند الثالث انه يرفض السماح له بدخول المملكة وأغضبت هذه الرسالة الكونت وعاد إلى طرابلس فلما رأى البارونات مدى الخطر الذي لا بد وان يصيب المملكة (الصوري، 1995م، ج2/ص 272). توقف وليم عن الكتابة واستطاع وليم أن يقنع الملك بالصفح عن ريمون واسترضائه لكن رغم ذلك استمرت السلطة الفعلية في يد رجال البلاط (العريني، 1962م، ص 122).

غادر صلاح الدين مصر في مايو 1182م متجهاً إلى دمشق، فلما وصلها علم أن فروخشاه هاجم إقليم الجليل واستولى على عشرين ألف رأس من الغنم ووقع في أسره ألف رجل كما انه استولى على قلعة حبيس جلدك و بعد ما قضى صلاح الدين بعض الوقت في دمشق خرج علي رأس قواته حيث دارت معركة مع الصليبيين عند قلعة كوكب الهوي التابعة للاستبارية و لم تنته بنصر حاسم لأي من الطرفين (عمران، 2011م، ص 108).

التفت صلاح الدين بعد ذلك إلى فصل امارتي طرابلس و انطاكية عن مملكة بيت المقدس بهدف لشق قوات الصليبيين، وكانت بيروت هي المدينة التي تحقق له هذا الهدف ، فحشد قواته و أرسل إلى أخيه العادل في مصر ليسانده من جهة البحر فأغار على الداروم و غزة و عسقلان و ضرب حصاراً على بيروت، وأمر بلدوين الرابع الذي كان لا يزال في صفورية بإعداد الأسطول الصليبي في عكا وصيداً؛ لإنقاذ بيروت و شدد صلاح الدين الحصار على المدينة لفتحها لكن المدينة صمدت و لم يستطع فتحها و أمر اسطوله بالعودة الي مصر (طقوش، 2011، ص 461_462).

عاد صلاح الدين إلى دمشق و سيطر على الرها و سروج و نصبين و سنجار و ديار بكر و حلب و أصبحت مملكة صلاح الدين تمتد من نهر دجلة شرقاً حتي مصر غرباً و أخذ دمشق عاصمة له (عمران، 2011م، ص 108_109).

نظم رينو دي شاتيون حملة في البحر الذي كان رئيساً اقطاعياً على الكرك في شرق الأردن باتجاه الأماكن الإسلامية المقدسة، كان البعض يرى أن هذه الحملة لرغبته في منازعة المصريين و اليمنيين و احتكار التجارة بالبحر الأحمر لكن لا يمكن ان نتوقع من رينو الذي بدأ مسيرته في الشرق بعملية سطو ضد القبرصيين إلا أن يقوم بعملية نهب جديدة (كاهن، 1995م، ص 191).

وحاول رينو أن يستولى على البضائع بالميناء التجارية و تجاوز السفن في ميناء عيذاب و اشعلت النار بالسفن الراسية بها ثم اوغلوا حتي منطقة غابر وأغرقوا على مقربة منها سفينة حجاج في طريقها الي جدة (عمران، 2011م، ص 110).

انزل العادل أخو صلاح الدين أسطولاً قوياً في البحر الأحمر بقيادة حسام الدين لؤلؤ و طاردوا السفن الصليبية ودمروها وأسروا بحارتها، فاسترد ايلة و حرر غراي من الحصارو حرر من عليها من أسرى المسلمين و أرسل الأسرى الصليبيين إلى مصر حيث تم استعراضهم في شوارعها قبل ان يقتلوا وأرسل اثنين منهم إلى منى لينحروا حتي يكونوا عبره لغيرهم ، اشعل ذلك العداء بين الرجلين حيث نذر صلاح الدين بأنه لن يغفر لرينو محاولة انتهاك حرمة الأماكن المقدسة (طقوش، 2011، ص 463).

اواخر 1182م أثناء الاحتفال بعيد الميلاد لم يسجل وليم ما دار بينه و بين الملك من احاديث لكنه اشار انها لم تتطرق إلى البناء على جاي و حاشيته (العريني، 1962م، ص 123)

عام 1183م دعا الملك بلدوين الرابع إلى عقد مجلس في المملكة، وقد حضرته امه اجنس و بطرك بيت المقدس و النبلاء و تقرر في هذا الاجتماع تعيين جاي لوزيجنان وصياً على المملكة و احتفظ بلدوين بلقبه و مدينة بيت

المقدس و معاش مقداره عشرة الاف بيزنط و تولي جاي بقية إدارة المملكة و أقسم جاي ان لا يعتلي عرش المملكة طالما كان بلدوين على قيد الحياة و انه لن يستولي على أي مدينة او حصن في حوزة الملك (الصوري، 1995م، ج2/ ص 317_318).

في سبتمبر 1183م عبر صلاح الدين نهر الأردن و دخل مدينة بيسان فأحرقها و فر أهلها إلى مدينة طبرية (Tiberias) و لما علم جاي اوف لوزيجنان جمع قواته في صفورية (Tzipori) و منها اتجهوا إلى زرعين حيث هزمهم المسلمون فقد التزموا بالدفاع عن أنفسهم فقط و كان لسلوك جاي في عدم مهاجمة القوات الإسلامية سببا مباشراً في اتهام الصليبيين له بالجبن (عمران، 2011م، ص 110).

بذلك برهنت الأحداث على عدم كفاءة جاي اذ تسبب هزيمة الصليبيين في صفورية 1183م فقرر بلدوين عزله عن الوصاية و تتويج بلدوين الخامس ملكاً الذي كان لا يتجاوز الخامسة و ادى له جميع بارونات المملكة قسم الولاء و الطاعة ماعدا جاي لأنه لم يطلب منه أن يؤدي القسم (الصوري، 1995م، ج2/ ص 324). و تألف مجلس الوصاية على بلدوين من خمسة أفراد كان على رأسه بوهيمند الثالث امير انطاكية و ريموند كونت طرابلس (عمران، 2011م، ج2/ ص 110).

اهتم صلاح الدين بحصن الكرك لأنه كان في يد رينو الذي ما من معاهدة اوقفته عند حده و كان صلاح الدين قد عاد إلى دمشق ثم خرج على رأس جيش لحصار الكرك وصادفت اجتماع الأمراء للاحتفال بزواج الاميرة ايزابيلا، وفي الوقت الذي كان فيه الحصن يتعرض لقذائف المجانيق؛ أحضرت ستيفاني والددة العريس صحونا من الطعام و أرسلتها إلى صلاح الدين، فأمر ان لا يتعرض البرج للقذف من جانب العرس، أرسل الصليبيون الرسل إلى بيت المقدس تلتئم المساعدة من الملك بلدوين، وأصر أن يحضر المعركة على الرغم من شدة مرضه، ولما اقترب الجيش من الحصن رأى صلاح الدين أن ينسحب مؤقتاً ، و اعاد محاولة حصاره في الصيف التالي و شاركه الجيش المصري بقيادة ابن اخيه تقي الدين حكم مصر و انضم إليه اخوه العادل بقوات حلب إلا انه انسحب للمرة الثانية ، لكنه قد انتقم من المملكة الصليبية بالإغارة على نابلس و سبسطية (Sabastia) و جنين (Jenin) (طقوش، 2011م، ص 463_464).

أراد الملك فصل اخته سبيلا عن جاي لوزيجنان و حاول الطعن في صحة زواجهما، عندما علم جاي ذهب إلى عسقلان، و أرسل ليستدعي زوجته من بيت المقدس قبل ان يعود من عكا و يمنعها من مغادرة المدينة (مجهول، 2002م، ص 17).

عندما علم الملك ان جاي غادر أرسل خلفه لاستدعائه إلى بلاطه لكنه رفض، و استمر في إرسال العديد من الرسل حتى قرر بلدوين الذهاب نفسه إليه و ضرب البوابة بيده ثلاث مرات لكن لم يتقدم أحد لفتحها. غضب الملك و تحرك إلى يافا التي استولى عليها و نصب حاكماً لها، ثم عاد إلى عكا (Edbury, 2017, p.1).

أمر بلدوين باستدعاء جميع رجال مملكة بيت المقدس، وأمرهم بان يقسموا يمين الطاعة بقبول ريموند كونت طرابلس وصياً على المملكة حتى يبلغ ابن أخته بلدوين سن الرشد و كان بلدوين هو ابن اخته سبيلا من المركيز وليم و قد توجه بنفسه ، تم الاتفاق إذا كثر الزمان عن انيابه لبلدوين و مات من دون وريث يتم اختيار ريموند كونت طرابلس ليكون ملكاً على بيت المقدس (مجهول، 2002م، ص 20_21).

عارض عدد من الأمراء ذلك كان من بينهم جاي لوزيجنان نفسه و رئيس الداوية و رينو صاحب الكرك و لم تنقض أسابيع حتي تدهورت صحة الملك بلدوين (طقوش، 2011م، ص 465_466).

أصبح بلدوين الرابع غير قادر على المشي أو استخدام كلتا يديه بالإضافة إلى فقد البصر، و في عام 1185م مات بلدوين الرابع دون وريث تاركاً تاج مملكة بيت المقدس إلى ابن اخته سبيلا وهو الملك بلدوين الخامس (Baldwin V) Brewer & Kane, 2019, P.3).

المبحث السابع: الخطة التي وضعها وليم لمدونه

أحس وليم السوري بعد ان أصبح ريموند أمير طرابلس وصيًا ان المملكة في يد قوية، و كان ذلك حافزاً له ان يعود إلى الكتابة و لكن في عام 1184م أصاب وليم المرض، وعرض وصف الخطة التي اتخذها في كتابه؛ وهي تقسيم الكتاب إلى 23 فصلاً، و انه لم يكتب إلا بداية الفصل الثالث والعشرين و كان آخر ما سجله هو اختيار ريموند وصيًا (العريني، 1962م، ص 123).

يتضح من خلال ما سجله وليم في مدونه انه لم يوجهه إلى أحد من افراد العائلة المالكة لكنه اكتفى بالدفاع عن الحق الوراثي في الحكم الملكي، لكنه وجهه إلى إخوانه الموقرين في المسيح، و زملائه الأساقفة في الكنيسة، فلم يكن مهمته مدح الأسر الحاكمة بل إعطاء صورة عن الشرق اللاتيني أوضاعه و احواله التي يمر بها، ففي مقدمة كتابه هيستوريا (Historia) التي كتبت عام 1184م ذكر فيها وليم ان حبه لوطنه هو ما دفعه للكتابة، و ذلك قبل ذكر تكليف الملك عموري له (Edbury, & Rowe, 1990, p.25).

قد دون وليم منذ عهد بلدوين الأول حتى عهد بلدوين الرابع بتوثيق الحدث وفقاً للتقويم الميلادي أو السنوات الملكية وفقاً لعهد كل ملك، و لكن في حالة استخدام السنوات الملكية كان الأمر أكثر تعقيداً في العهود التي سبقت عهد بلدوين الرابع الذي عاصره و كان صاحب تأثير و دوراً فعالاً خلاله (Stevenson, 1907, pp.361-362).

يذكر عن الفصل الأخير من حياة المؤرخ وليم السوري وفقاً للمؤرخ ارنول (Ernoul) ان موته المفاجئ ليس مصادفةً، بل يرجح انه قد قتل بالسم على يد طبيب أرسله هرقل اوف قيسارية ، و يعود الصراع بين وليم و هرقل للعام 1180م، و قد تجدد الصراع عندما اعترض على عاداته التي وصفها بأنها فاسقة و عدم ملائمتها لهذا المنصب الرفيع بالإضافة إلى وجود نبوءة مفادها ان الصليب المقدس الذي تم اعادته إلى القدس في عهد هرقل سينزع مرة أخرى في عهده، و بذلك قرر وليم اللجوء إلى روما (Caxton, 1893, pp.xxix-xxv).

لم يحدد تمامًا تاريخ موته الا أنه من المؤكد انه قبل مايو 1185م، حيث كان هذا التاريخ الذي خلفه فيه نائبه (العريني، 1962م، ص 123).

خاتمة

توصلت بالبحث إلى عدة نتائج منها :

- ظهور الجانب الإنساني لوليم من خلال ما دونه عن شعوره تجاه بلدوين الرابع باعتباره رعايته مجرد تكليف من أبيه عموري الأول قبله بعد إلحاح منه، ثم شعوره اتجاهه بالمسؤولية يليها المحبة الواضحة له في سرده لحزنه عند ظهور بداية ظهور مرض بلدوين و فقده الاحساس بيده و تأكيد فرحته بمحبة بلدوين له و استنكاره و رفضه لكل ما يهين شعور بلدوين و فخره بكل انجاز له و شجاعته و تغلبه علي الأمه .
- شعور وليم بالمسؤولية تجاه المملكة و استقرار شئونها باعتبار انه جزء منها و هي جزء منه، و أرى انه ربما دون سجله بإسهاب لشعوره الداخلي إنه دفتر لحياته هو شخصيًا لذلك كان دائماً يعود ليسجل حتي بعد فترات انقطاعه الطويلة بدون تكليف من أحد.
- تميز وليم بأنه لم ينفصل أبدًا عن السلك الكنسي رغم ما تقلده من مناصب في البلاط الملكي، حيث كانت نشأته الأولى ليشب كرجل دين، و لكن دراسته للقانون بجانب التعليم الكنسي اضاف لشخصية رجل الدين جانب موضوعي و جعله قادرًا على التحلي بصفات المؤرخ و ظهر هذا واضحًا عندما رجح أسباب النصر أو الهزيمة لأسباب بشرية بالإضافة لأسباب الالهية و لم يأخذ في الاعتبار بأحدهما فقط .

- اهتم وليم في تناول سيرة الأشخاص بدراستهم وتقدير كفاءتهم و نقدهم لكن بأنصاف اشار أيضاً لفترات تواجد الباباوات على كرسي البابوية و من تلاهم و وصف دعوات المجامع الدينية و تأثيرها علي العالم المسيحي .
- اهتم وليم بإبراز تفاصيل المواقع التي زارها وعادات الشعوب و كافة نواحي الحياة واعتمد أيضاً على روايات شهود العيان في نقل الاحداث السابقة مع التحقق منها و امدنا بمعلومات عن بقايا مدن و اطلال مباني و قلاع .
- نجح وليم في رصد عدد من الزيجات السياسية، و انتقال الملك بنظام مغاير للعادات المتبعة، و تأثيرها المتباين على مستقبل الممالك الصليبية .
- القي وليم الضوء على تفاصيل الحملات العسكرية وأوقات الهدنة والمفاوضات الدبلوماسية و بنود الاتفاقيات وحيث كان حريصاً على تدوين كل ما يشاهده سواء كان لصالح الصليبيين أو المسلمين ، و بهذا استحق وليم ان يكون مصدرًا أساسيًا لكل ما عاصره.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر

أ- المصادر الأجنبية:

- Babcock, E. A., & Krey, A. C. (1943). William of Tyre, A History of Deeds - Done Beyond the Sea. New York: Records of Civilization and Studies
- Caxton, W. (1893). Godeffroy of Boloyne, Or, The Siege and Conquest of Jerusalem: Translated from the French by William Caxton of Colvin. Early English Text Society
- ب- المصادر العربية و المعربة
- الصوري، وليم (1995م)، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. حسن حبشي، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مجهول (2002م)، ذيل وليم الصوري، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ع (229).

ثانياً: المراجع

أ - المراجع الأجنبية

- Brewer, K., & Kane, J. (2019). The Conquest of the Holy Land by Ṣalāḥ al-Dīn Acritical edition and translation of the anonymous Libellus de expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum. Routledge
- Edbury, P. W. (2017). The conquest of Jerusalem and the Third Crusade: sources in translation. Routledge
- Edbury, P. W., & Rowe, J. G. (1990). William of Tyre: historian of the Latin East CUP Archive
- Hamilton, B. (2005). The leper king and his heirs: Baldwin IV and the Crusader Kingdom of Jerusalem. Cambridge University Press

Stevenson, W. B., & Stevenson, W. B. (1907). The crusaders in the East: a brief history of the wars of Islam with the Latins in Syria during the twelfth and thirteenth centuries. Cambridge University Press

ب - المراجع العربية و المعربة

- الشيخ، محمد محمد مرسى (2004م)، عصر الحروب الصليبية في الشرق، دار المعرفة الجامعية.
- العريني، السيد الباز (1962م)، مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة العربية.
- برجاوي، سعيد احمد (1984م)، الحروب الصليبية في المشرق، منشورات دار الافاق الجديدة.
- رانسيما، ستيفن (1994م)، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، ج 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- طقوش، محمد سهيل (2011م)، تاريخ الحروب الصليبية، ط1، دار النفائس.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح (2010م)، الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد الاسلامي، ط9، مكتبة الانجلو المصرية.
- عطية، حسين محمد عطية (1989م)، إمارة انطاكية الصليبية و المسلمون، ط1، دار المعرفة الجامعية.
- علي، عبد الحفيظ محمد (1984م)، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس، ط1، دار النهضة العربية.
- عمران، محمود سعيد (1985م)، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور مانويل الاول، دار المعارف.
- عمران، محمود سعيد (2011م)، تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية.
- كاهن، كلود (1995م)، الشرق و الغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة احمد الشيخ، سينا للنشر.